الموعـــــــــــــــــد

ناصـــــــــــر الربـــاط *

عدتُ إلى بيتي اليوم قبل غروب الشمس بساعة. تعمّدتُ السيرَ ببطء لكي أوهمَ نفسي بأنّي لبستُ متلهِّفًا لموعدي في المساء. وكنتُ قبل ذلك قد حاولتُ أن أقتلَ الوقت، فجلستُ في الجنينة مع صديقة وتحادثتُ وإيّاها في أشياء كثيرة، محاولاً التشاغلَ عن ترقُّبِ ما سيأتي به المساءُ، ومتمتِّعًا بطقس بعد الظهر الرائع. نسمةٌ مصفّاةٌ بمرورها فوق شجيْرات الجنينة ونوافيرها، وشمسٌ خَفِرةٌ تَجْنح إلى الدخول في مرحلةِ أفوالها، وارتخاءٌ يُمْكن لمسُه لمسَ اليد في هواء هذا اليوم الخَدِر. ثم ودّعتُ صديقتي، وغادرتُ الجامعة.

عبرتُ ميدان التحرير وتوجّهتُ بتؤدة إلى كوبري قصر النيل، والشمسُ ترنو من خلف حُجُبٍ من السحاب الفضّي الذي انعكس على سطح النيل رصاصيّاً صافيًا، وكأنّه أَسْمى وأنبلُ ما في السماء، ثم تثاقل وخسّت قيمتُه عندما هبط إلى سطح الماء. الشمس نفسُها اعترى صفارَها المعتادَ أَلقٌ أبيض، كأنّها أرادت التماشي مع إطار سُحُبها الفضي فخلطتْ ذهبَها پلاتينًا. قطعتُ شارع التحرير في الجزيرة، ثم عبرتُ كوبري ميدان الجلاء الذي تطقطق مفصّلاتُه احتجاجًا على مرور العربات فوقه. وعندما وصلتُ إلى الدقّي، فقدتُ الاهتمامَ بتتبُّع تغيُّرِ الألوان والظلال والأصوات، وبدأتُ أخطِّط للعشاء.

مررتُ على البقّال، واشتريتُ بعضَ الخُضَر والفواكه، ثم دلفتُ إلى بيتي والشمسُ قد غابت وحلّ محلَّها ذلك اللالونُ الذي يميِّزُ عادةً فترةَ ما بعد الغروب قبل هبوط الليل. تشاغلتُ بمئة أمر تافه. ثم بدأتُ بإعداد العشاء. وانهمكتُ بتحضير سلطة الفواكه، ثم الفتّوش، وبعده الأرزّ. قطّعتُ الفِطْر شرائحَ صغيرةً وبدأتُ بطهوها، ثم قطّعتُ بعض الخضر وقليْتُها، وبدأت بتحضيرِ المرق من حليب جوز الهند وعصيرِ الليمون والكمّونِ والكزبرة. رنّ جرسُ الهاتف. رفعتُه. جاءني صوتُ زميلي من ميشيغان يخبرني عن تحضيراته لجلساتنا في مؤتمر التاريخ الحديث للسنة القادمة، وما يريد منّي إرسالَه لكي أَضْمنَ اشتراكي. ثم دقّ جرسُ الباب، فتركتُ زميلي على الخطّ. وببطء متعمّد توجّهتُ لأفتح الباب.

دخلتْ، رحّبتُ بها، وردّتْ. قبّلتُ وجنتيْها، وعدتُ إلى زميلي لكي أُنهي المكالمة بسرعة، واعدًا إيّاه بإرسال طلبي بالبريد المستعجل.

اسمُها April (آيپرلْ)، أيْ نيسان، وفيها منه الكثيرُ:

فكما يأتينا هذا الشهرُ عادةً هادئًا بين شتاءٍ باردٍ وصيفٍ حارّ، مبشِّرًا بربيع يتمنّاه الجميعُ مزهرًا ومنعشًا، كذلك تَلُوح هي. وكما يميل الطقسُ فيه إلى الاستقرار والدَّعَة، كذلك يبدو طبعُها. حتى صوتُها فيه بحّةٌ ربيعيةٌ كما لو كان مسبِّبَها رشحٌ لطيفٌ أصابها في أمسية من أمسيات الشهر المائلة إلى البرودة لأنّها نسيتْ خلال دفء النهار المُشْمس أنّ الشتاء لم يُوَلِّ منذ زمنٍ بعيد. وجهُها غضٌّ، تحيط به هالةٌ متماوجةٌ من الشعر الكستنائي المحمرِّ كلونِ شفقٍ غامق. على خدّها الأيسر وفوق حاجبها ثلاثُ بثرات صغيرة تُضْفي على وجهها طابعًا متميِّزًا. عيناها الكرمانيّتان متكلِّمتان وفصيحتان. أما فمُها المزموم فينحو إلى الصمت. أنفُها دقيق ترتفع طرّتُه ارتفاعًا خفيفًا. خدّاها مدوَّران، زاهيان حينًا وشاحبان حينًا، كأنّ لونهما تناوَبَ عليه لونُ نوّار المشمش في أول نيسان ولونُ نوّارِ الدرّاق في آخره.

كنّا قد تعارفنا في سهرة عند صديقة. جاءت آيپرلْ بعد مجيء الجميع، ودخلتْ إلى غرفة جلوسنا التي كانت قد بدأتْ تَعْبق بدخان السجائر ورائحةِ الشراب وضجيج أحاديثنا الصاخبة عمّا فعله كلٌّ منّا منذ تلاقيْنا آخرَ مرة. توقّفَ الحديثُ برهةً عند دخولها، لكونها جديدةً على الشلّة. ولكنّنا سرعان ما عدنا إلى ما كنّا فيه بعد تقديمٍ بسيطٍ أخبرتْنا فيه مضيفتُنا أنّ آيپرلْ أميركية، وأنّها تقيم وتَعْمل في القاهرة، وأنّها من هواة الغطس في شرم الشيخ، حيث تلاقتا قبل بضعة أشهر لأنّ مضيفتنا كانت مدرِّبة غَطْس. لم تشارك آيپرلْ في الحديث مباشرةً، بل أخذتْ كأسًا وأَشْعلتْ سيجارةً وجلستْ على الأرض تستمع إلى ما يدور. لم يلتفتْ إليها أحد، وإنْ كنّا كلُّنا قد تنبَّهْنا إلى جمالها وأنوثتها الرقيقة. وأظنّ أنّ الشباب من بيننا تساءلوا بينهم وبين أنفسهم ما إذا كانت آيپرلْ غيرَ مرتبطة، وكلّهم رغبوا في الخروج معها.

---

* - كاتب سوري. أستاذ الآغا خان للعمارة الإسلامية، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T).

وصل الحديثُ فجأةً إلى ما كان يَحْدث في مصر من ملاحقة لجماعاتِ شبابٍ تُتّهم بممارسة السحر أو الديانات السرية أو تعاطي المخدِّرات أو الجنس المثلي، واعتقالهم اعتباطيّاً والتشهيرِ بهم في وسائل الإعلام وعلى صفحات الجرائد. وكنّا كلّنا بطبيعة الحال، وبحكم، خلفياتنا الثقافية والطبقية والقومية، ليبراليين ومعارضين لذلك الاضطهاد ولتدخُّلِ الدولةِ في ما لا يعنيها من حريات الأفراد في اختيار معتقداتهم وطريقةِ حياته. اندفعنا جميعًا ندين ما يَحْصل، ونَسْخر من التعارض البيِّن بين دولةٍ تدّعي احترامَ حقوق الأفراد ثم تلاحقهم وتَسْجنهم تلافيًا لغضبة المتشدِّدين دينيّاً، الذين تضطهدهم هم أيضًا ـ وربما بطرقٍ أشدَّ قسوةً وأقلَّ احترامًا لإنسانيّتهم ـ عندما يحاولون تنظيمَ أنفسهم سياسيّاً أو عندما يَخْرجون في اعتراضاتهم عن «خطوطٍ حُمْرٍ» غير معلَنة ولكنّها مطبَّقة بصرامة.

عندما تكلمتْ آيپرلْ، جاء كلامُها مفاجئًا لأنّه كان مغايرًا تمامًا لانطباعنا الأول عنها. اقترحتْ علينا أن نَنْظر إلى الأمر من منظورٍ مقارن. قالت بصوتها المبحوح، بلهجة بدأتْ هادئةً ثم تصاعدتْ وتيرتُها بسرعة: «كيف يمكن التوفيقُ بين معتقدات الأغلبية وتصرُّفاتها، ومعتقداتِ الأقلية وتصرُّفاتِها، في مجتمعٍ ديموقراطي أو شبه ديموقراطي؟ ثم كيف تتصرّف الدولُ التي نتّخذها نموذجًا إزاء مواقف كهذه؟ وكيف يُمْكننا التعلُّم من تجاربها وأخطائها؟»

هكذا، وببضع عبارات، نَقلتْ آيپرلْ الحديثَ من مستواه الصاخب إلى مستوًى جديد يتطلّب تركيزًا أكثرَ ممّا يُمْكننا أن نَبْلغه في جلسة الفرفشة هذه. ولكنّي ارتأيتُ مجاراتَها، فأجبتُها «أوافقك الرأيَ نظريّاً، ولكنْ دعينا نَعْقدْ هذه المقارنةَ لنرى أين تقف مَصرُ بالنسبة إلى غيرها من الدول الديموقراطية وغير الديموقراطية، ولنقرّرَ إذا ما كانت جادّةً فعلاً في السير على درب احترام حقوق الإنسان أمْ أنّها تقوم بعملياتِ تجميلٍ على سجلاّتها الحافلة بهدرِ هذه الحقوق خضوعًا للضغوط الخارجية.»

حدجتني آيپرلْ بنظرةٍ مستفهمةٍ، لعلّها كانت تقول بها: «ما الذي تبتغيه حقّاً من جوابك هذا؟»

طبعًا فهمتْني الصبيّةُ على فور، فأنا أردتُ، أولاً وقبل كلِّ شيء، إبرازَ سعة علمي واطّلاعي وتمكُّني من هذه المواضيع السياسية الشائكة في محيطٍ يَنْدر فيه طرحُ قضايا كهذه. ولكنّي، طبعًا، أردتُ أساسًا أن أَلْفت انتباهَ آيپرلْ إليّ، وربما أَمِلْتُ في أن أثيرَ إعجابَها وأن تراني متميِّزًا بثقافتي عن الآخرين. غير أنّها بكياسةِ خبيرةٍ في جلسات الشباب المعتادة، لفلفتِ الموضوعَ الذي كان قد بدأ يَجْثم على سهرةٍ الهدفُ منها هو المرحُ، ونَقلتِ الحديثَ إلى سؤالِ المضيفة عن أحوالِ الغطس في شرم الشيخ لأنّها لم تذهبْ إليها منذ عدة أسابيع

لم أَحِدْ بنظري عن آيپرلْ بعد ذلك حتى نهاية السهرة مع ساعات الصباح الأولى. أخذتُ أتأمّلُ جمالَها وهدوءها وقدرتَها على الاستماع لفترات طويلة من دون مشاركةٍ أو تأفُّفٍ أو ملل أعجبني ما شاهدتُه أيّما إعجاب، وحاولتُ فتحَ أحاديث جانبية معها، ولكنّها ـ أيضًا بتدبيرِ خبيرةٍ ـ فضّلتْ عدمَ الانجرار في هذا الاتجاه، واقتصرتْ أجوبتُها على جملٍ مقتضبة لا تفسح مجالاً لنقاش. بَيْد أنّها لم تُبْدِ أيَّ تأفُّفٍ من استمراري في المحاولة، ولم تَرْفض الإجابةَ عن أيٍّ من أسئلتي. بل خُيِّل إليّ أنّها كانت هي أيضًا تستدرجني لأنّ أُفصح لها في النهاية عن هدفي الكامن من وراء ادّعائي الاهتمامَ بالنقاش الذي طرحتْه في بداية السهرة. وهذا ما حصل

فقد استجمعتُ جرأتي ـ أمْ لعلّها الخمرةُ التي غَبَبْتُها خلال السهرة فحلّتْ عقدةُ لساني؟ ـ ووجدتُني أسأل آيپرلْ أن تَقْبل دعوتي إلى العشاء... هكذا دفعةً واحدةً. وتجرّأتُ أكثرَ، فدعوتُها إلى منزلي لأنّها كانت قد أعلنتْ أنّها نباتيةٌ ملتزمةٌ وأنّها لا تجد في القاهرة الكثيرَ من الأطعمة التي يمكنها أكلُها لأنّها يجب أن تكون خاليةً تمامًا من أيّ منتجات حيوانية وقلتُ لها إنّي خلال إقامتي في كاليفورنيا أصبحتُ نباتيّاً معتدلاً، أيْ أنّي آكل السمكَ ومشتقّاتِ اللبن، وصرتُ طبّاخًا ماهرًا، وإنّي أُجيد تحضيرَ العديد من الأطباق النباتية الصرفة على الطريقة الآسيوية

قبلتْ آيپرلْ دعوتي بكلّ بساطة، ومن دون تردُّد. وسألتني عن عنواني وعن اليوم والساعة، واتفقنا على أن تأتي بنفسها لأنّها تعرف كيف تتنقّل في القاهرة بسهولة. ولم تَفُتني نظراتُ الدهشة على وجوه أصحابي، الذين كانوا يستمعون إلى حديثنا ويشاهدون بأمّ أعينهم نجاحي مع آيپرلْ. بل إنّ صاحبة البيت همستْ في أذني، وهي تقبّل وجنتيَّ عند خروجي: «حظّاً سعيدًا يا شاطر!»

لذلك كان أول سؤال وجّهتُه إلى آيبرلْ عندما استقرّ بنا المقامُ في بيتي: «كيف قبلتِ دعوتي بهذه السهولة بعد نقاشنا المبتور؟»

«تمامًا لهذا السبب،» أجابت، «أردتُ أن أعطيكَ الفرصةَ لتشرحَ نقطتك. ثم إنّي أردتُ أن أَعْرفك أكثر »

فاجأني الجوابُ بصراحته ومباشرته، ولم أدرِ كيف أردّ. فسكتُّ ثوانيَ أَسْتجمع أفكاري. ولكنّي لم أَجِدْ جوابًا أفضلَ من سؤالها «هل أنتِ جائعة؟ فالعشاء جاهز »

جلسنا إلى مائدة الطعام. فتحتُ زجاجةَ نبيذٍ لبنانيّ ممّا لا يتوفّر في القاهرة، كنتُ قد جلبتُها معي من السوق الحرّة في آخر سفرة وادّخرتُها لمناسبة كهذه وتحدّثنا، وتشعّبت المواضيع. تحدّثنا عن مجريات الأمور في مصر وفي الولايات المتحدة وتكلّمنا على حقوق الإنسان، وكيف تطوّرتْ، ومن هُمْ أبرزُ المدافعين عنها وأبرزُ مُهْدريها في القرن العشرين

وأكلنا. ثم توقّفْنا عن الأكل وحدّقنا قليلاً في لاشيء. ثم عُدْنا إلى الأكل والشرب والكلام المتقطّع ولكنّنا نحن الاثنيْن بدأنا ننتقل في كلامنا من العامّ إلى الخاصّ. وطفقنا نُطعِّم أسئلتَنا بملاحظاتٍ شخصية.

تصرُّفاتُها طبيعية، وإنْ كانت أحيانًا فجّة أذواقُها، على ما يبدو، متواضعةٌ، وكذلك رؤاها، وإنْ كان اشتفافُها صعبًا. إلاّ أنّ هدوءها غيرَ المصطنع، وبحّةَ صوتها، وتقطُّع الكلام عندما يُفْلت من بين شفتيْها، كلُّ ذلك لذيذ. وكذلك حركاتُها، وحرارةُ حماسها الدقيق والرقيق إلى مواضيع تهمّها أو تدافع عنها بالكلام وبهزّ جسدها كلّه هزّاً خفيفًا استجابةً لحماسها المتصاعد.

بقينا جالسيْن على طاولة الطعام، وأمامنا تناثرتْ أطباقٌ وكؤوسٌ. وتدرّجْنا في حديثنا إلى ما يتدرّج إليه كلُّ شاب وصبيّةٍ عندما يتكلّمان بحريّة، وإنْ كان كلٌّ منهما يبيِّت في ذهنه أفكارًا، ويَلْمح ردودَ فعلٍ جليسه، ويدوِّن دقائقَ لفتتِ انتباهَه، ويخطِّط لخطواتٍ تاليةٍ، ويسائل نفسَه: «هل أندفع أمْ أتوانى؟»

حَدَّثتُها عن حياتي وعن آمالي، وكيف تركتُ بلدي سعيًا وراء هذه الآمال، وذهبتُ لأتابع دراساتي العليا في الولايات المتحدة الأميركية. سألتني باهتمام عمّا أنوي فعلَه بعد انتهاء تحضيري لشهادة الدكتوراه واهتمّت أكثرَ عندما قلتُ لها إنّي أودّ متابعةَ البحث والكتابة في التاريخ، وإنّي سأفتّش عن عملٍ أكاديميّ أو مركزٍ للبحث

سألتني: «أين؟»

قلتُ في نفسي إنّها ربّما تحاول التأكّدَ ممّا إذا كنّا سنكون في بلدٍ واحدٍ في المستقبل بعد انتهاء إقامتنا في مصر فقلتُ: «على الأغلب في الولايات المتحدة نفسها » وخُيِّل إليّ أنّ تعبيرَ اطمئنانٍ عَبَر عينيْها لبرهة. احتفظتُ بالمبادرة بأنْ سألتُها. «وماذا عن مخطّطاتكِ أنتِ؟»

قالت: «لا أدري بعدُ، ولكنّي لن أبقى في القاهرة أكثرَ من سنة أخرى »

قلت: «وتعودين بعدها إلى الولايات المتحدة؟»

«ربما،» أجابتني، «لو كان هناك سببٌ حقيقيّ للعودة من أجله »

قلتُ في نفسي. هل هذا تلميحٌ لي، أم تفكيرٌ صريحٌ بصوتٍ عالٍ؟ وقرّرتُ تغييرَ دفّة الحديث باتجاهٍ أكثرَ حميميةً، فسألتها. «وما الذي جاء بكِ أصلاً إلى مصر؟ أهي قصةُ حبّ؟»

ضحكتْ وأجابت بعبارة أميركية قحّة: «الجحيم، لا!» ثم أخبرتْني عن حياتها، وكيف احتارت بعد سنين ثلاث في الجامعة في ما تودّ أن تَفْعله بها. فتركت الجامعةَ، واختارت أن تسافر وتعمل بحثًا عن معزًى لحياتها. فابتدأتْ بالمكسيك، ولكنّها أحسّت بأنّها قريبةٌ جدّاً إلى ثقافتها الأصلية، إذ إنّ أمها من أصل «هيسپاني» أيْ من أميركا اللاتينية فذهبتْ إلى التيبت سعيًا وراء الغريب والجديد، ولكنّها شعرتْ

بغربةٍ طاحنةٍ لم تُفْلحْ مناظرُ الجبال الشاهقة ولا الظرفُ الزائدُ للتيبتيين ولا التجاربُ الروحيةُ التصوُّفية في التخفيف منها. فجاءت إلى مصر مع سائحٍ أوروبيّ قابلتْه في لهاسا أَخْبَرها أنّ مصر بغيتُها؛ فهي قريبة من الغرب الأوروبي ببعضِ قواعدها وتجلِّياتِ حداثتها، وإنْ كانت ماتزال تحتفظ بذلك السحر الشرقي الذي يَهْفو إليه فؤادُ الغربيين. ومع أنّها لم تجد ما قاله صديقُها الأوروبي صحيحًا مائه بالمائة، فقد ارتاحت إلى الإقامة في القاهرة التي قَضَتْ فيها أكثرَ من سنة، خاصةً عندما وجدتْ لنفسها عملاً مع جمعيةٍ كنسيةٍ خيرية تُعْنى بأطفال فقراء الأحياء الشعبية، وبدأتْ بتعليم بعض الصفوف مبادئَ الإنجليزية والصحة العامة والذوق السليم.

مرّ الوقتُ. واندفعتُ في كلامي أُخْبرها عن علاقاتي السابقة التي أردتُ تقديمَها إليها لا كما حصلتْ فعلاً، بل كما أردتُها أن تحصل، أيْ مزيجًا من الرومانسية والجنس الناجح أحيانًا واللذيْن لم يؤدّيا إلى ثبات أو استمرار، ولم يخلِّفا أثرًا يُذْكر في تركيبتي النفسية وأردتُ التأكيدَ أنْ لا علاقةَ عاطفيةً لي في ذلك الوقت في مصر، وأنْ لا فتاةَ تنتظرني في الولايات المتحدة. واندفعتْ هي أيضًا تتحدّث بجرأة عن حياتها العاطفية وتجاربها الجنسية قبل مصر وفي مصر، حيث ارتبطتْ بعلاقاتٍ عابرةٍ مع مصريين وأجانب، وعن رغباتها وأحلامها بمستقبل حرّ من كلّ ارتباط ولكنّه مسكونٌ بدفءِ علاقاتٍ خفيفةٍ ومُرْضية عاطفيّاً وفكريّاً وجسديّاً. وافقتُها على ذلك، وطفقتُ، بتسرُّعٍ ربما، أَمْتدح الحبَّ الحرَّ على أنّه أصدقُ أنواع العلاقات في زمننا هذا.

ثم سكن الكلامُ. وتطلّع الواحدُ منّا في عيني الآخر طويلاً بتلك النظرات التي لا يَخْفى معناها أبدًا على اثنيْن استهلكا زجاجةَ نبيذٍ معًا وقضيا ساعةً أو أكثرَ يتحدّثان عن تحرُّرهما وعن مغامراتهما العاطفية والجنسية. ولكنْ لم يبادرْ أيٌّ منّا إلى الدخول في موضوعِ تتمةِ سهرتنا وكيف سنَقْضيها . إذا كنّا سنَقْضيها معًا أصلاً.

احترتُ في ما أقولُ أو أفعل. ولم تساعدْني آيبرِلْ على الإطلاق، بل استمرّت في التحديق في وجهي بنظرةٍ هي مزيجٌ من اللامبالاة البريئة والتساؤل الخبيث. ولم تقلْ شيئًا، أو على الأقلّ لم تتلفَّظْ بأيّ كلام، وإنْ كانت عيناها تقولان الكثيرَ ممّا عجزتُ عن فهمه تردّتُ. ثم أحسستُ بالاحمرار يَنْدفع إلى وجنتيَّ، بل إلى جذور الشعرات القليلة المتبقّية على طرّة رأسي لا أعلم لماذا، ولكنّي شعرتُ فجأةً أنّي عدتُ بالعمر إلى الوراء. تملّكني ذلك الاضطرابُ والتلهُّفُ والاندفاعُ والحياءُ والأملُ والخوفُ التي يَشْعر بها كلُّ مراهق ـ أو التي شعرتُ بها أنا على الأقلّ عندما كنتُ في سنّ المراهقة ـ عندما يصل إلى ذلك التساؤل المعهود مع رفيقته. «ماذا الآن؟ وكيف نبدأ؟»

ثم جاءت التجربةُ والمراوغةُ والحسابُ والسخريةُ المتراكمة والكبرياءُ، المصقولةُ جميعُها، لتضع واجهةً جديدةً لذلك التساؤل، خادعةً وكاذبةً ولكنّها مُرْضيةٌ للغرور، ولتؤجّل الإجابةَ إلى جولة قادمة، ظننتُها ستكون أكثرَ وضوحًا أو ربّما أكثرَ مجازفةً. وأظنّها هي أيضًا شعرتْ بذلك، أو أنّها أرادته كذلك منذ البداية. فقد رفعتْ عينيْها إليّ وقالت. «ما رأيك؟»

فقلتُ متجنِّبًا اتخاذَ القرار. «ما رأيُكِ أنتِ؟» وابتسمتُ ابتسامةً لا بدّ أنّها بدتْ لها بلهاء

قالت مسايرةً، وربما مع قليل من الدلال: «لعلّنا ننتظر موعدًا قادمًا.» وابتسمتِ ابتسامةً عارفة.

وافقتُها بسرعةٍ وبلا أدنى تردُّد: «أجل، لننتظرْ إلى الموعد القادم.»

بدا على محيّاها الارتياحُ، ونهضتْ لتذهبَ وقد أحاط كلاً منّا ذلك الستارُ المُباعِدُ الذي أضفاه علينا قرارُ الانتظار المحسوب والبارد. ونزلتُ معها إلى الشاعر المعتّم وودّعتُها على باب التاكسي من دون أن تتلامس أيدينا نفسُها. وكنّا كلانا عارفيْن أنّه لن تكون لهذه الأمسية أيّةُ تتمة.

كامبردج، ماساتشوستس